د . عبّاس الجراري
استاذ الأدب المغربي والأدب الشعبي
بكلية الآداب - جامعة محمد الخامس

من أدب الدعوة الإسلامية

دار الثقافة
الدار البيضاء - المغرب

الخطابـــة

1 – في الجاهلية :

كان من أسباب ازدهار الخطابة في هذا العصر مكانة الخطيب بين قومه على حد قول الأعشى في مدح قوم :

فيهم الخصب والسماحـــة والنجدة والخاطب الصلاق

وعلى حد ما يثبت قول أوس بن حجر في رثاء أبي دُلَيْجَة فَضالة ابن كَلَدة حين يقول :

أبا دليجةَ مـــن يكفي العشيرة إذ
أمسوا من الخَطْب في لَبْسٍ وبَلْبال
أم قد يكون خطيبَ القوم إذ قفَلوا
لدى المـــلوك ذوي أيدٍ وأفضال

بل إنا نجـــد أبا عمرو بن العلاء يجعل الخطيب في الجاهلية فوق الشاعر (1) .

كذلك كان من بين عوامل ازدهار الخطابة طبيعة تسيير العرب

---

(1) أنظر البيان والتبيين ج 1 ص 170 .

لأمورهم في كثير من الحرية والشورى . ويذهب « كارلو نلينو » الى أن « الألفاظ التي كان العرب يعبرون بها عن متولي حكم قوم من أقوامهم أعني السيد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقيل في أنحاء اليمن – إذا بحثنا عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أن معناها الأصلي إنما كان القائل أو المتكلم »(2) ، وكأنه يعتمد في ذلك على ما قاله التبريزي في شرحه على حماسة أبي تمام من أن الرئيس سمي زعيماً لأنه يزعم عنهم أي كما قيل له قَيْل ومقول .

ونستطيع أن نضيف الى هذين العاملين عاملاً ثالثاً هو حاجة القبيلة الى الخطابة في اتصالها مع القبائل الأخرى ، سواء في مفاخرة أو رد على هجوم ، أو تحريض على قتال ، أو أخذ بثأر ، أو غير ذلك من المواقف والمناسبات ، وكثيراً ما كانت الخطابة وسيلة الدعوة الى السلم وإلى إصلاح ذات البين ، في الوقت الذي كان الشعر حافزاً الى الحرب .

وإذا رجعنا الى كتب الأدب القديمة وخاصة منها « البيان والتبيين » فإننا نجد الجاحظ يعد من خطباء هذه الفترة عدداً كبيراً سواء في قبائل مكة والمدينة ، أو في غيرها من قبائل البادية .

فمن خطباء مكة هاشم وأمية ونُفَيل بن عبد العُزّى جد عمر بن الخطاب ، وعتبة بن ربيعة خطيب القرشيين في بدر ، وسهيل بن عمرو الأعلم وهو من خطبائهم كذلك .

---

(2) تاريخ الآداب العربية ص 81 « نشر مريم نلينو – دار المعارف – مصر »

ومن خطباء المدينة قيس بن الشماس وابنه ثابت خطيب الرسول ، وسعد بن الربيع .

ومن خطباء البوادي أبو عمرو الطائي خطيب مذحج ، وهانىء بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذي قار ، وهرم بن قطبة الفزاري ، وقس بن ساعدة خطيب إياد ، وعطارد بن حاجب خطيب بني تميم ، وكان فيهم كثير من الخطباء .

وفي « البيان والتبيين » كذلك كلام مفصل عن التقاليد التي كان يتخذها الخطباء الجاهليون ، فهم يخطبون على رواحلهم في المواقف العظيمة وإذا وقفوا على الأرض اعتمدوا على القسي والعصي والمخاصر يشيرون بها . ويشترط في الخطباء أن يكونوا حاضري البديهة ثابتي الحجة أقوياء الصوت ، لا يتلعثمون ولا يلتفتون ولا يتنحنحون بحثاً عن كلماتهم .

وليس من شك في أنه من الصعب على الباحث أن يحاول استخراج خصائص للخطابة في هذا العصر ، وبين يديه نصوص قليلة مشكوك في صحتها . وحتى خطبة قس بن ساعدة المشهورة فهي لم تسلم من التغيير والتحريف ، على الرغم من أنها رويت بإسناد الرسول عليه السلام وهو إسناد يقول عنه الجاحظ أنه « تعجز عنه الأماني وتنقطع عنه الآمال »(3) . ومع ذلك فالذي يذكره القدماء ومن عني منهم بالخطابة ، وخاصة الجاحظ ، أن السجع كان من أهم مميزات خطب هذا العصر . وشيوع السجع دليل على أنهم كانوا يعنون بخطبهم ويجوّدونها . وفي البيان

---

(3) البيان والتبيين ج 1 ص 203 .

والتبيين » (4) أنا « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال الخطب » .

وقد وصف الشعر هذا التدبير والاعتناء كقول أبي قردودة الطائي يرثي أبا عمار خطيب طيء وكان قد قتل :

يا جفنةً كإزاء الحوض قد هدموا
ومنطقاً مثل وشي اليُمْنَة الحَبِره (5)

وقوله كذلك :

ومنطـــقٍ خُرِّق بالعـواسل
لذّ كوشي اليُمنة المراحل (6)

كذلك تمتاز هذه الخطب بالقصر والإيجاز والاستشهاد فيها بالشعر .

2 – في الاسلام :

نعرف أن الاسلام أثر في النثر أكثر مما أثر في الشعر ، وأن الخطابة كانت أكثر ألوان النثر تأثراً به . ونعرف كذلك أن الخطابة قد ازدهرت في هذا العصر لما كان يزخر به من أحداث ضخام ، خاصة وأنها كانت وسيلة فعالة من وسائل الدعوة الى الدين والتبشير بمبادئه ومثله والإقناع

(4) ج 1 ص 81 .
(5) إزاء : حوض الماء . اليمنة : نوع من برود اليمن .
(6) المراحل ج مرحل وهو الشيء الذي تصور عليه الرحال .

بها وشرحها وتحليلها . ولعل ما سبق أن قلناه عن القرآن الكريم يكاد أن ينطبق على الخطـــابة ، فهي في مرحلتها الأولى كانت تستهدف بث الدعوة ونشرها ، وهي مرحلة أخلاقية شبيهة بمرحـلة القرآن المكي ، ثم أصبحت في مرحلة ثانية تشرح الدين وتفصل الشرائع ، على حد ما يكشف عنه الدور المدني للقرآن .

وقد كانت الدعوة الاسلامية – بقرآنها وبما صاحبها من تبشير بالدين وحث على الجهاد والخروج للفتوح ، ومـــا لحقها من تنازع على الخلافة وارتداد بعـــض القبائل – عاملاً مؤثراً في ازدهـار الخطابة في هذا العهد .

يضاف الى ذلك نوع النظام الذي ساد الدولة الاسلامية في مراحلهـا الأولى ، وما كان يطبعه من ديموقراطية وشورى تتيح للمسلمين أن يناقشوا ويعارضوا ويعبروا عن رأيهم في كثير من الصراحة والاطمئنان . ولعل هذه العوامل جعلت للخطباء منزلة تفوق منزلة الشعراء . وقد ساعدت هذه الظاهرة على نبوغ كثير من الخطباء .

فإلى جانب الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين اشتهر من الخطباء ثابت بن قيس بن الشماس خطيب الرسول ، وسعد بن الربيـــع شاعر الأنصار ، والحباب بن المنذر خطيب يوم السقيفة ، وغيرهم من الصحابة أمثال عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود والسيدة عائشة . ومنهم كذلك عبدالله بن عباس وكان في جانب علي ، وعمرو ابن العاص وكان يساند معـــاوية ، وغيرهم عدد كثير لا يحصى من المفوّهين .

وإذا حاولنا أن ننظر في خطابة هذا العصر لمقارنتها بالخطابة الجاهلية ، فإننا سنجدها قد ورثت مختلف الألوان المعروفة عند الجاهلية ، وإن حوّرتها بعض الشيء . وما يقال من أن خطب المغامرات ، والمنافرات قد قضي عليها فقول لا يخلو من مبالغة . حقاً ان مبادىء الاسلام نهت عن التفاخر والتنافر وما يقومان عليه من روح عصبية ونخوة قبلية ، ولكن المتتبع لخطب سقيفة بني ساعدة بعد موت الرسول ، وما دارت عليه من تنازع حول الخلافة بين المهاجرين والأنصار ، لا يلبث أن يكشف آثاراً للمفاخرات والمنافرات القبلية الجاهلية . فهذا أبو بكر يخطب ويقول :

« أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوهاً وأكثر الناس ولادة في العرب وأمسّهم رحماً برسول الله ﷺ أسلمنا قبلكم وقُدّمنا في القرآن عليكم ... فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش فلا تَنْفَسُوا على اخوانكم ما منحهم الله من فضل » (7) .

ولعلنا نستطيع أن نتوسع في مفهوم هذا اللون لندرج فيه المناظرات الدينية السياسية التي قامت حول تنازع المسلمين على الخلافة وشؤون الحكم ، وكان مدارها التعصب والاختلاف في فهم القرآن والحديث وتأويلها ، مما خلق هذا العدد من الفرق والمذاهب . وقد كانت هذه المناظرات تتسم بكثير من الجدل والأخذ والعطاء والاحتجاج بالقرآن

(7) جمهرة خطب العرب ، جمع أحمد زكي صفوت ج 1 ص 63 « ط الأولى – مصر » .

والسنة ، وربما تطور هذا اللون فيما بعد من الاسلام الى نوع منظم من الجدل يعتمد على المنطق والفلسفة .

وقريب من هذه المناظرات تلكم الخطب السياسية التي كان يشرح فيها الخلفاء والولاة أمور الدولة ويوضحون فيها الخطط والمشاريع وما إليها مما يريدون إطلاع الرعية عليه .

وأغلب الظن أن الوصايا التي كان يوصي بها الخلفاء والولاة تعد في هذا اللون . ومن الأمثلة على ذلك قول أبي بكر لخالد بن الوليد في وصية حربية : « سر على بركة الله فإذا دخلتَ أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدِلاّء ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البَيات فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام فإن مالك ما وُعي عنك ، واقبل من الناس علانيتهم وكِلهم الى الله في سريرتهم ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه » (8) .

ومن الأمثلة كذلك وصية أبي بكر لعمر بن الخطاب عند موته ويطغى عليها الروح الديني : « إني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله . إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل . وانه لا تقبل نافلة حتى تُؤدّى الفريضة فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثِقَلِه عليهم وحُق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم

(8) المصدر السابق ص 75 .

القيامة باتباعهم الباطل وخِفَّتِه عليهم وحُق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ... » (9) .

وما كان معروفاً عند الجاهليين من خطب في الحض على الحرب والقتال أصبح في هذا العصر يشيد بالجهاد والاستشهاد ونعيم الجنة الذي وُعد به الشهداء . وخطب الرسول والخلفاء زاخرة بهذه المعاني الاسلامية تصورها وتحث عليها في كثير من الترغيب .

ومثل ذلك يقال في خطب المناسبات كاستقبال الوفود والتهاني والتعازي — ولعلنا ان نعد منها خطب الإملاك — فربما كان من أهم التأثيرات الاسلامية عليها أنها أصبحت تتضمن آيات من القرآن الكريم .

ويبدو أن الخطب الدينية كانت أكثر من غيرها تأثراً بالإسلام لما تدعو له من هداية ووعظ وإرشاد وشرح لأمور الدين وتفصيل لشرائعه . وقد كدنا أن نقول ان هذا اللون من الخطب نشأ مع الاسلام ، ولكن الواقع أن العرب في جاهليتهم كانوا يعرفون شيئاً من هذا القبيل يتضمن بعض المواعظ التي تدخل في نطاق الدين . ومع ذلك فإن الاسلام جاء بنوع منظم ومنسق من الخطب لم يكن معروفاً من قبل ، ألا وهو خطب الجمعة والعيدين . فخطبتا الجمعة تبدآن بالتحميد والشهادة والصلاة على النبي وتتضمن الأولى بعض آيات من القرآن ويكون في الثانية دعاء . ويعتلي الخطيب منبراً أو غيره مما يشرف به على الناس ، ويعتمد على سيف أو عصا أو غيرهما مما يُتكأ به . وخطبتا العيد تفتتحان بالتكبير سَبْع تكبيرات في الأولى وستاً في الثانية وقيل

(9) المصدر السابق ص 77 .

يكبّر في أولها وفي أثنائها من غير تحديد (10) ويباح فيهما للخطيب أن يلقيهما قاعداً ، وإذا كانت الخطابة تسبق الصلاة في الجمعة فإن الصلاة تسبقها في العيدين .

وإذا كانت الخطب في العصر الجاهلي قد اتسمت بالإيجاز والقصر والسجع والاستشهاد بالشعر والحكم والأمثال ، فإنها في الاسلام قد حافظت على جل هذه الخصائص باستثناء السجع الذي اختفى أو كاد بسبب نهي الرسول عنه لما فيه من تشبيه بالكهان . فقد روي في الحديث الشريف أن الرسول قضى على رجل في جنينٍ بديته فقال الرجل : يا رسول الله أأَدِي من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهلّ ، أليس مثل ذلك يُطل ؟ فأنكر النبي عليه السلام هذا الأسلوب على الرجل وقال له : « أسجعاً كسجع الكهان » ؟

وكما نهى الرسول عن السجع كذلك فعل الخلفاء ، فقد روي أن عمر ابن الخطاب سأل صحاراً العبدي البليغ المشهور عن مَكْرَانَ الفارسية أثناء غزو المسلمين لها فقال : « يا أمير المؤمنين أرض سهلها جبل وماؤها وَشَل وثمرها دَقَل وعدوها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير بها قليل والقليل بها ضائع وما وراءها شر منها » ، فقال عمر : « أسجاع أنت أم مخبر » فقال صحار : « بل مخبر » . وإذا كانت مثل هذه الروايات تكشف عن نفور الرسول والخلفاء من السجع باعتباره أثراً من آثار الكهان فإن هذا لا يعني أنه اختفى نهائياً ، لا سيما وأن الجاحظ يقول : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاع

(10) بالنسبة لركعتي الصلاة يكبر في الأولى سبعاً بتكبيرة الإحرام . وعند الشافعي أنها أكثر من ذلك . وفي الثانية ستاً بتكبيرة القيام عند مالك وربما أبو حنيفة كذلك . ولا يرفع يديه مع التكبيرات في المشهور خلافاً للشافعي وابن حنبل .

كثيرة » (11) . أما ما يمكن أن يرد بـــه من طغيان السجع على نهج البلاغة المنسوب لعلي بن أبي طالب فـلا يزيد إلا شكاً في صحة نسبة هذا النهج إلى ابن أبي طالب .

ونفور الرسول والخلفاء من السجع لا يعني أنهم لم يكونوا يُعنون بخطبهم ، فقد عرف عنهم أنهم كانوا ينقحون ألفاظـاً ويحلون أسلوبها ، ولكن في غير تـكلف ولا مبالغة . فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لـَقِست نفسي » وروي عن عمر أنه قال يوم السقيفة : « كنت زوَّرت كلاماً أردت أن أقوم بـه فيهم » وروي عن عثمان أن وقف للخطبة فأرتج عليه فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً وأنتم الى إمـام عادل أحوج منكم الى إمام خطيب » وهذه كلها دلائل تثبت أن الخلفاء كانوا يحبرون خطبهم ويجودونها ويعنون بها وإن لم يذهبوا في ذلك الى حد الزخرف والصنعة والتنميق المتـكلف .

ومع ذلك فقد تميزت الخطابة الاسلامية ببعض السمات التي يمكن أن تعتبر جديدة . فبعض الخطب السياسية لجـأت الى الطول حتى تتيح لنفسها عرض الأفكار وتوضيحها . ولعلنا نلاحظ ذلك في خطبة الرسول في حجة الوداع وفي خطب الخلافات المذهبية . بل إنا نجـد الرسول يخطب مرة بعد العصر « ولم يزل يخطب حتى لم يتبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف فقال : إنه لم يبق من الدنيـا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى » (12) .

(11) البيان والتبيين ج 1 ص 195 .

(12) الجمهرة ج 1 ص 54 .

ولكن هذه الخطبة على طولها لم تصلنا منها إلا فقرات ، مما يؤكد أنه لم يحفظ لنا من خطب الرسول إلا جزء ضئيل ، فليس يعقل أن يكون هذا النزر القليل الذي وصلنا هو كل ما فـاه به الرسول طوال سنوات كان يدعو فيها الى الاسلام ، سواء في مكة أو المدينة . وأكبر دليل على ضياع هذا التراث أنه لم يبق من خطبه الجمعية إلا أول خطبة خطبها بالمدينة على إثر الهجرة . وما يقـال عن خطب الرسول يقـال كذلك عن خطب الخلفاء وغيرهم من خطباء هذا العصر .

ومن تأثير الاسلام على الخطب أنها أصبحت تفتتح بالتحميد حتى لا تسمى بتراء ، وبالصلاة على الرسول حتى لا تسمى شوهـاء ، وأصبحت تتضمن آيات من القرآن الكريم وشيئاً من الدعاء .

وظهر هذا التأثير واضحاً في خطب الجمعة التي ينبغي أن تقترن فيها الحمدلة بالشهادة حتى لا تسمى جذماء . وعن الاقتباس من القرآن الكريم يقول الجاحظ « ان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع » (13) .

أما بعد هذا فلعل أهم ما يميز الخطابة الاسلامية عن الخطابة الجاهلية طغيان الروح الاسلامي عليها فكراً وموضوعاً . فهي في مختلف ألوانهـا متأثرة بمثل الاسلام وقيمه ، ثم انها غدت في هذا العصر متناسقة البناء مترابطة الأجزاء واضحة الصدق والغاية .

(13) البيان والتبيين ج 1 ص 118 .

حسان بن ثابت

أولاً – نشأته :

نشأ حسان بن ثابت بن المنذر في أسرة يمنية قحطانية من الخزرج أباً وأماً كان لها شأن كبير في يثرب سواء في الجاهلية أو الاسلام ، وهي أسرة يلتقي فيها عند أحد أجداده عمرو بن عامر بن ماء السماء مع الغساسنة ملوك الشام ومع اللخميين ملوك العراق . وسنرى أنه ظل محتفظاً بهذه القرابة معتزاً بها لا ينفك يذكرها في شعره .

ولسنا نعرف سنة ولادته ، وإن روي أنه كان في الستين من عمره حين هاجر الرسول الى يثرب ، بل إنا نجد دائرة المعارف الاسلامية تجعل ولادته حوالى عام 563 م معتمدة على ما ورد في السيرة من أنه يكبر الرسول بسبعة أعوام أو ثمانية .

أما سنة وفاته فقد وقع خلاف في تحديدها ، فمن الباحثين من يجعلها في السنة الأربعين من الهجرة ، ومنهم من يجعلها في الثمانين ، ومنهم من يجعلها بين ذلك . ولكنا إذا عرفنا أن حسان كان في الستين من عمره حين أسلم ، وأنه أسلم مع الأنصار في أول الهجرة ، وإذا عرفنا كذلك أنه عُمر نحو مائة سنة ، استطعنا أن نأخذ بالقول الذي يجعل تاريخ وفاته في السنة الأربعين . وستجدون في كتب السيرة أنه عمر مائة وعشرين سنة نصفها في الجاهلية ونصفها في الاسلام ، ولكن هذا قول

مبالغ فيه لا سيما وأن هذه الكتب تريد أن تجعل كثيراً من الصحابة يعيشون في الاسلام مدة تساوي ما عاشوه في الجاهلية ، وكأنها بذلك لا تريد أن تكون لحياتهم الأولى رواسب وآثار حتى ولو كانت مجرد بقايا من السنين زائدة .

وتتفق الروايات بعد ذلك في القول بأنه عمر في أواخر حياته ، وأنه عاش هذه الفترة في المدينة منهك القوى ضعيف الجسم لا يقوى حتى على قول الشعر .

ولسنا نعرف عن حياته في الجاهلية إلا هذا الذي تكشف عنه قصائده التي يشيد فيها بأيام الخزرج ووقائعها ، لا سيما تلك التي يناقض فيها شاعرَ الأوس قيس بن الخطيم . وهي قصائد تثبت بما لا يدع مجالاً للشك – خاصة إذا أضيفت لقول النقاد في شعره الجاهلي – أن حسان كان شاعر الخزرج الأول ، بل أنه كان « أشعر أهل المدينة » على حد قول ابن سلام ، وأنه بذلك استطاع أن يكون شاعر بلاط الملوك والأمراء الغسانيين ، بل انه استطاع أن يحافظ على صداقة الغسانيين وعلى عطاياهم حتى بعد الاسلام . ويبدو كذلك أنه اتصل في الحيرة بالنعمان الثالث المعروف بأبي قابوس في الفترة التي كان النابغة مبعداً عن البلاط ، فمدحه وأخذ منه ، ولكنه لم يلبث أن تركه بعد أن صفا الجو ما بين النابغة والنعمان .

ثانياً – شخصيته :

يكاد يجمع المؤرخون والرواة على أن حسان بن ثابت كان معروفاً بالجبن . وفي الأغاني لدى ترجمته أخبار كثيرة تذكر أنه كان في الحروب يختبىء مع النساء والأطفال في الأُطُم ، وأنه كان يتهيب حتى الرجل

المقتول ولا يقوى على سلبه ، وهي أخبار تكشف عن مدى خوفه من المعارك . ولعل مما يؤكد هذه الأخبار أنه لم يشارك في غزوة أو سريّة قط ، وإن كنا نعزو عدم خوضه غمار الحروب الى أنه كان يومئذ شيخاً يناهز الستين . ثم إننا نجد في « الأغاني » أن أكحله كان قد قطع فلم يكن يضرب بيده ، وقد أثبت ذلك في شعره حين قال :

أضر بجسمي مر الدهور وخان قراع يدي الأكحل
وقد كنت أشهد وقع الحروب ويحمرّ في كفي المُنْصل

وعند الأصمعي أنه لم يكن جباناً ، وأنه لو كان كذلك لعيره الذين هاجموه بالجبن . وربما كان حسان يشعر ببعض النقص في تخلفه عن خوض المعارك والحروب ، وربما كان يلجأ في التعويض عن ذلك الى اتخاذ بعض المظاهر يوهم بها نفسه .

ففي الأغاني أنه كان يخضب شاربيه وعنفَقَتَه (1) وأن ولده عبد الرحمن استفسره عن ذلك فأجابه : « لأكون كأني أسد والغ في دم » وقد استنتج البستاني في روائعه من هذه الظاهرة أنه كان « متأنقاً في مظهره » (2) .

ولعلنا من خلال مقدماته الغزلية وأشعاره الجاهلية في الخمر والمنادمة ، وخاصة في مجالس أمراء الغساسنة ، نستطيع أن نرسم له صورة هي أقرب ما تكون الى اللهو والمجون في غير قليل من العبث والاستهتار .

ولعلنا كذلك من خلال شعره القبلي وهجائه ومناقضاته ومن خلال

---

(1) العنفقة : الشعيرات بين الشفة السفلى والذقن .
(2) ص 143 .

ما نعرف عنه من حدة لسان ، نستطيع أن نستخلص لحسان صفات تدل على عنف شخصيته وميلها الى السخرية واللذع في كثير من الانفعال والتهور .

وربما كان من الأشياء التي أثارت كثيراً من القول في حسان مدى حُسن إسلامه . حقاً انه اعتنق الدين الجديد حين سارعت قبيلته إليه ، وحقاً كذلك انه كان شاعر الرسول ، بل شاعر الاسلام الأول ، ولكننا حين نتتبع أخباره في كتب السيرة والتاريخ نجد أنه وقع في بعض المآزق التي من شأنها أن تشكك في تمكن الاسلام من قلبه .

1 – من ذلك خبر الإفك الذي تعرضت له السيدة عائشة والذي شارك فيه حسان ، ونجدُ تفصيل ذلك في الجزء الثاني من كتاب سيرة ابن هشام[3] . ومجمل هذا الخبر أن السيدة عائشة كانت قد خرجت مع الرسول الى غزوة بني المصطَلِق (السنة السادسة) ، وعند العودة حدث أن انسل عقد كان في عنقها ، فتأخرت عن الركب تبحث عنه ، فلمحها المنافقون وقد أركبها صفوان بن المعطل السلمي ناقته ، وكانت الصدفة أنه تأخر كذلك ، فاستغلوا ذلك لإطلاق إشاعات ضد عرض الرسول ساءه أن يسمعها ، فحزن حزناً شديداً ، الى أن نزل القرآن ببراءتها في قوله من سورة النور[4] : « إن الذين جاءوا بالإفك عُصْبةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم » .

وتحكي السيرة أن الرسول بعد نزول هذه الآية خرج الى المسلمين وتلاها عليهم وأمر بالذين أشاعوا القضية وأفصحوا بالفاحشة أن يُضربوا

(3) ابتداء من ص 297 .

(4) الآية 11 .

حدَّهم ، وكان من هؤلاء مِسطح بن أُثاثة وحمنة بنت جحش وحسان ابن ثابت .

على أننا نجد في ديوان حسان كثيراً من الشعر يحاول أن يبرىء ساحته ويبعد عنه التهمة كهذه الأبيات التي يقولها من قصيدة في مدح السيدة (كامل) :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبة
وتصبح غرثى في لحوم الغوافل[5]

خليلة خير الناس ديناً ومنصباً
نبيّ الهدى والمكرمات الفواصل

مهذبةٌ قد طيّب الله خِيمها[6]
وطهَّرها من كل سوء وباطل

فإن كنت قد قلتُ الذي قد زعمتم
فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

وكيف وودي ما حييت ونصرتي
لآل رسول الله زَيْنِ المحافل

2 – تعصبه للانصار ولقبيلته الخزرجية خاصة ، ويظهر هذا التعصب واضحاً في فتح مكة حين عين الرسول على رأس الجيش قبيلة سُلَيم بقيادة خالد بن الوليد ، وكانت رغبة الأنصار أن يكونوا أول الداخل

(5) حصان : عفيفة . رزان : الملازمة لبيتها وهو دليل على الوقار والعفة والثبات ما تزن : ما تتهم . غرثى : جائعة ، ومعنى الشطر أنها لا تهتك في أعراض الناس .

(6) الخيم : الأصل .

الى مكة حتى يشفوا غليلهم من القرشيين ويذلوهم ، ونحن نعرف ما كان بين القرشيين والأمصار . وتتمثل هذه العصبية واضحة في القصيدة التي قالها في المناسبة والتي بلغ فيها أقصى درجات العصبية ، بـل أكثر من ذلك أن فيها غير قليل من المن على الرسول والاسلام لا سيما حين يقول (بسيط) :

علام تُدعى سليم وهي نازحة
أمام قوم همُ آوَوْا وهم نصروا
سمّاهم الله أنصاراً لنصرتهـــم
دين الهدى وعَوان الحرب تستعر

ويظل يفخر بأعمال الأنصار الى أن يقول :

وكم ردَدْنا ببدرٍ دون ما طلبوا
أهل النفـــاق وفينا أنزل الظفر
فما ونَيْنَا وما خِمْنَا وما خَبَروا (7)
منا عِثاراً وجل القوم قد عثروا

وسنرى حين نحلل القصيدة التي أولها :

أمسى الجلابيب قد عزّوا وقد كثروا
وابن الفُريعة أضحى بيضة البـلد

أنه قالها حين رأى كثيراً من العرب يهاجرون الى المدينة ويزاحمون أهلها .

---

(7) ما خمنا : ما خبنا .

ومع ذلك فإن حسان كان يتمتع بمكانة عالية في نفس الرسول ، كما أن شعره كان يلقى تقديراً وتأثيراً لم يكن يلقاهما شعر غيره . وكان حسان يعلم ذلك ويفتخر به ، وقد يدافع به عن نفسه . فقد حكى أن عمر بن الخطاب دخل المسجد فوجد ابن ثابت ينشد فاقترب منه وقال : « أرغاءٌ كرغاء البعير » فرد عليه : دعنا منك يا عمر فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فلا يغير علي » فلم يكن من عمر إلا أن انصرف وخلى سبيل حسان . وبلغ من إكبار الرسول لحسان وتقديره لشعره ومعرفة مدى فعاليته في نفوس المشركين أن جعل له منـــبراً خاصاً في مؤخرة المسجد يعتليه لإنشاد شعره . وبلغ من إكباره له أن كافأه بضيعة ووهبه الجارية القبطية سيرين أخت زوج الرسول مارية ، فتزوجها وأولدها عبد الرحمن فأصبح والرسول بذلك سَلِفَيْن . والحق أنه لو لم يكن من الخدمات التي أداها حسان للدين إلا تأثيره على وفـد بني تميم – على حد ما سبق أن رأينا – وإدخالهم بشعره في الاسلام لكان وحده كافياً لأن يجعل له في قلب الرسول هذه المكانة التي لم ينافسه عليها أحد . وينبغي أن نكون حذرين ونحن نقرأ كتب السيرة والأخبار . وهي تحاول مبالغة في النظر الى إكبار الرسول لحسان – أن تجعل منه شخصاً غير عادي يعلم بنبوته ساعة ولادته وهو طفل صغير لم يتجاوز السابعة ويتلقى الشعر من جبريل كما يتلقى الرسول الوحي .

ولعل هذا الذي راج بينه وبين عمر في المسجد حول إنشاد الشعر يكشف عن العواطف الفاترة المتبادلة بين الخليفة والشاعر ، وهي عواطف قائمة على الخلاف بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة منذ وفاة الرسول . ونحن نعرف أن ابن الخطاب وقبله أبا بكر كانا على رأي المهاجرين ومن حزبهم . واذا عرفنا بعد هذا أن عثمان بن عفان لم يكن يذهب هذا

المذهب استطعنا أن نفهم سر التجاوب الذي كان بينه وبين حسان ، وهو ذلكم التجاوب الذي تمثل الاشعار التي يدعو فيها الى الأخذ بثأره ، وهو تجاوب مذهبي عززته العلاقات الخاصة التي كانت تجمع بينهما على حد ما تذكر كتب السيرة .

ومهما يكن ، فقد كان حسان شاعر الرسول والاسلام ، تتبّع في شعره كل مراحل الدعوة الاسلامية بما صاحبها من حوادث وأحداث وسرايا وغزوات ، لم يترك شيئاً من ذلك إلا أنشد فيه ، يعرض بالمشركين يهجوهم ويناقضهم ويرد عليهم بنفس الأسلوب الذي كانوا يلجأون إليه ، يمدح الرسول وأصحابه ، يمجد انتصاراتهم ويشيد بمواقفهم البطولية ويرثي القتلى من المسلمين . وإذا ما تصفحتم كتب السيرة والمغـازي فإنكم ستجدونه يواكب بشعره مختلف الظروف والأحداث .

ثالثا – شعره :

1 – في الجاهلية :

أ – شاعر القبيلة .

كان شعر حسان في هذه الفترة تعبيراً عن قبيلته وتمجيداً لمكارمها من شجاعة وكرم وعلم وحكمة واعتزازاً بماضي القبيلة بأيامها وحروبها على حد ما يثبت قوله في هذه الأبيات (طويل) :

متى تسألي عنـا تُنَبَّي بأننا
كرامٌ وأنّا أهلُ عز مقـدَّمِ

وأنا عرانينٌ صقُورٌ مَصالتٌ
نهَزُّ قَنَـاةً متنُها لم يُوَصَّمِ (8)

ولا ضيفُنا عنـد القِرى بمُدَفَّعٍ
ومـا جارُنا في النائبـات بمُسْلَمِ

ونحن إذا لم يُبرم النـاسُ أمرَهم
نكون على أمرٍ من الحقِّ مُبرَمِ

ولو وُزِنَتْ رضْوَى بحِلم سَراتِنا
لمـال برضوى حلمُنا ويَلَمْلَمِ (9)

وهكذا الى أن يقول :

وإنا إذا مـا الأفقُ أمسى كأنما
على حافتيه مُمْسِياً لونُ عندمِ (10)

لنُطْعِمُ في المَشتى ونطعَن بالقنـا
إذا الحرب عادت كالحريق المُضَرَّمِ

ب – مادح الغساسنة .

كان يمدح الأمراء الغساسنة وخاصة جبلة بن الأيْهم وعمرو بن الحارث . ونستطيع أن نمثل لمدائح حسان في هذه الفترة بقصيدته التي أولهـا (كامل) :

---

(8) عرانين : سادة . لم يوصم : لم يعب « من الوصم » .

(9) رضوى ويلملم : جبلان .

(10) كناية عن الجدب .

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابي فالبضيع فحومل

وهي في مدح عمرو بن الحارث . فهو فيها يتحدث عن أمجاد الغسانيين وكرمهم ويصف مجالسهم وما يدور فيها من خمر صافية غير ممزوجة ، وما يحسه هو من نشوة هذه الخمر التي تسقيه الحسان إياها كأساً بعد كأس فلا يشبع ولا يرتوي .

وكما اندمج حسان في قبيلته وهو ينافح عنها ويفاخر ، فكذلك اندمج مع ممدوحيه ، فهؤلاء لا يمدحهم للرفد والعطاء ، وان كان يأخذ منهم الكثير ، وإنما هو يفعل ذلك افتخاراً بهم واعتزازاً ، فهم أخواله ومنهم أصله (رمل) :

رُبَّ خالٍ ليَ لو أبصرته
سَبِط الكفَّين في اليوم الخَصِر

منهم أصلي فمن يفخر به
يعرفُ الناس بفخر المفتخر

2 – في الإسلام (بقايا الجاهلية) :

أ – نجد كل عناصر شخصيته الجاهلية من حدة لسان وسخرية لاذعة وعنف متهور ، كما نجد بعض خصائص شعره في تلك الفترة ، وخاصة منها امتزاجه في القبيلة والممدوح حين يمجد ويمدح ، ولجوءه الى الوقائع والأيام والأنساب حين يفاخر . نجد كل ذلك منعكساً على شعره في الاسلام .

ب – وكما كان يفعل في الجاهلية على طريقة غيره من الشعراء من

الاستهلال بالمقدمة الغزلية ، فكذلك ظل يفعل في قصائده الاسلامية وإن أصبح لا يطيلها . ومن الأمثلة على ذلك قصيدته التي سبق أن ذكرنا أنه قالها في عتاب الرسول حين قدّم قبيلة سليم في دخول مكة ، فقد بدأها بقوله (بسيط) :

زادت همومٌ فماءُ العين ينحدر
سَحًّا إذا حَفَلَتْه عبرةٌ دِرَرُ(11)

وَجْداً بشعثاءَ إذ شعثاءُ بَهْكَنَةٌ(12)
هيفاء لا دنسٌ فيها ولا خَوَرُ

دع عنك شعثاء إذ كانت مودتها
نَزْراً وشرٌّ وصال الواصل النَّزِر

وأتِ الرسول فقل يا خيرَ مؤْتَمنٍ
للمؤمنين إذا ما عُدِّل البشر

علام تدعى ... الخ .

ولعلنا نلاحظ حسن تخلصه وإسراعه إلى هذا التخلص كذلك بقوله بعد بيتين فقط : دع عنك ...

ومثل هذه المقدمات نجدها في كثير من قصائده الطويلة ، حتى تلك القصائد التي يرثي بها شهداء المسلمين ، وإن كانت هذه المقدمات كما لاحظنا آنفاً لا تستغرق منه وقتاً كثيراً . ونستطيع أن نعزو هذا

---

(11) حفلته : جمعته .

(12) بهكنة : خفيفة الروح .

القصر إلى سرعة الحوادث وتزاحم الظروف لدرجة لم تترك له وقتاً يطيل فيه هذه المقدمات .

ولعلنا من هذا التعليل نستطيع أن نفهم سر تلكم المقطوعات القصيرة التي تملأ ديوانه .

ج – ونصل بعد هذا الى ملاحظة لا تخلو من أهمية وهي وصف الخمر عند حسان . فقد سبق أن رأينا أنـــه كان يجالس أمراء الغساسنة ينادمهم في غير قليل من المبالغة والإسراف ، وأنه كان يصف ذلك وصفاً ربما جعل بعض الباحثين يعدّونه من شعراء الخمر في الجاهلية . أما في الاسلام وقد حرم شرب الخمر ، فماذا كان موقفه ؟

إذا عدنا الى شعره فإننا سنجد قصيدة – لعلنا أن نحللهـــا ضمن النصوص – يمدح بها الرسول ولكنه يستهلّها بمقدمة يصف فيها مجلس خمر كان يشرب فيه ، يبدأها بقوله (وافر) :

عفت ذات الأصابع فالجـــواء
الى عذراء منزلها خـــلاء (13)

ثم يتحدث عن الخمر في بضعة أبيات يقول في آخرها :

ونشربها فتتركنـــا ملوكاً
وأُسْداً ما يُنَـهْنِهُنا اللقاء

وليس من شك في اننا نجد نفسنا في حيرة من أمر شاعر الرسول

(13) ذات الأصابع والجواء وعذراء : أسماء أمكنة بالشام .

والاسلام وهو يقدم لقصيدته بمثل هذا المجون ، وإن كنا نحاول أن نجد لذلك تعليلاً ، خاصة وأن بعض الباحثين كفؤاد البستاني يذهب الى أن حسان ظل « يتابع الشرب واللهو والسماع كمن ذي قبل » (14) معتمداً في ذلك على القصيدة نفسها . وأغلب الظن أن هذه المقدمة مجرد استهلال تقليدي لجأ إليه كعادته في الجاهلية ، لم يقصد منه إلى ذكر الواقع . وتكون القصيدة بذلـــك أثراً من آثار الجاهلية في شعره الاسلامي . وأغلب الظن كذلك أنها قيلت في أول إسلامه ، ولم يكن قد استطاع التخلص النهائي من رواسب العهـــد القديم ، أو لم يكن الاسلام قد حرم الخمر بعد .

على أننا نجد في أخبار حسان ما يجعلنا نميل الى القول بأنه لم ينشىء هذه المقدمة في الاسلام ، وإنما كان وضعها في الجاهلية ، واستغلها في التقديم لقصيدته المذكورة ، فقد ذكرت هذه الأخبـــار أنه دخل على جماعة من شباب قومه فوجدهم يشربون الخمر فعاب عليهم ذلك ، فقالوا له : إنما أخذنا ذلك منك وإنا لنهمّ بتركها فيرجعنا إليها قولك :

ونشربها فتتركنا ... الخ .

فرد حسان : « هذا شيء قلته في الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت » .

ولعلنا بعد هذا نميل الى تأكيد الأمر على هذا النحو خاصة وأنه باستثناء هذه القصيدة فإن الخمر قد اختفت من شعره في فترة الاسلام .

د – أما في غير ذلك فحسان حين يمدح الرسول ويفخر بالاسلام

(14) الروائع ص 144 .